بكالوريوس
فى المسرح . . وليس فى حكم الشعوب

أن يكون الكاتب **عصريًا** معناه قبلا أن يكون **معاصراً** . . . **فالأصالة والمعاصرة** وجهان لحقيقة واحدة ، وثمة سببية متبادلة بين الجانبين ، فبمقدار ما يكون أصيلا ، يكون معاصراً ، وليس النقص فى أحدهما إلا نقصاً فى كليهما ، لأن العلاقة بينهما أشبه بعلاقة السوائل فى الأوانى المستطرقة . . تزداد أو تنقص معاً وفى وقت واحد ، بنفس القدر وعلى نفس المستوى !

ونعنى **بالأصالة** تلك الطاقة الروحية الكامنة فى ضمير الكاتب داخل الشعب ، أو المواطن داخل الوطن ، والتى تمكنه من معانقة أرضه واعتناق ماضيه . . لا بمعنى الانسحاق فوق تراب هذه الأرض ، والتعصب لهذا الماضى ، ولكن بمعنى التمثل والاستيعاب . . واستلهام القيمة الدافعة إلى التواصل والاستمرار . .

ونعنى **بالمعاصرة** أن يعيش الكاتب عصره ، لا بمعنى الانفعال ولكن على مستوى الاستكناه ، فالكاتب المعاصر ليس صنيعة عصره ، بل هو صانع ذلك العصر ، هو محور ما يجرى فيه من أحداث ، وهو صاحب ما تثور فيه من قضايا ، ومن هنا ، كان لزاماً على الكاتب العصرى ألا يرتبط بالتاريخ ارتباطاً طوليا فحسب ، وإنما يرتبط به كذلك ارتباطا عرضيًا ، بمعنى أن تترابط فى وجدانه أحداث عصره ، سواء

على الصعيد المحلى أو الصعيد العالمى ، مشكلة فى ضميره بانوراما الإنسان المعاصر.

هاتان القيمتان .. **الأصالة والمعاصرة** ، هما الركيزتان المحوريتان اللتان تقوم عليهما أعمال الكاتب المسرحى « **على سالم** » بوجه عام ، وتقوم عليهما مسرحيته الشهيرة (**إنت اللى قتلت الوحش !**) بوجه خاص ، ومسرحيته الجديدة (**بكالوريوس فى حكم الشعوب**) بوجه أخص !

فهنا مسرحيته تلخص تلخيصاً ذكيًّا واعياً ، أحداث ربع قرن من الزمان ، تعاقبت على عالمنا الثالث ، وراح فيها هذا العالم الثالث يبحث عن ذاته ، ويتعرف على ملامحه ، ويستخلص مقوماته ، ولكن وسط عالمين أعرق فى التجربة ، وأعمق فى الممارسة ، هما العالم الغربى والعالم الشرقى . وجرب عالمنا الثالث أن يتجه إلى كلا العالمين .. ولكن دون جدوى ! فالعالمان كلاهما وجهان لعملة واحدة ، أحد وجهيها (**الصورة**) بكل ما ترمز إليه من استعمار واستغلال ، والوجه الآخر هو (**الكتابة**) بكل ما تتضمنه من ثرثرة أيديولوجية : وهذا معناه أن الشيوعية تقف على أحد طرفى النقيض من أصالتنا فى الدين والتراث ، وتقف الرأسمالية على طرف النقيض الآخر من معاصرتنا فى التحرر والاستقلال ، أيكون الخلاص إذن فى (**نظرية ثالثة**) لا شرقية ولا غربية ؟ ولكن ما هى هذه النظرية ؟ وكيف تكون ؟

إنها فى عالمنا الثالث لم تكن أكثر من مجرد (تطبيق) عماده التجربة والخطأ ، ولكن التطبيق بدون نظرية واضحة لا يعنى سوى المزيد من التجربة والمزيد من الخطأ ، والتجارب إن أجريت على الفئران فلا يجوز إجراؤها على الشعوب ، لذلك لابد من اللجوء إلى (**البعد الرابع**) فى الموقف كله ، إلى البعد الروحى ، البعد الذى يتمثل فيه شرف الإنسان وكرامة الإنسان ، البعد الذى ناضل الإنسان طوال تاريخه الطويل والمرير من أجل الوصول إليه ، والحصول عليه ، البعد الذى

لا يعارضه دين فى السماء ، ولا تراث فى الأرض ، ولا ضمير فى الإنسان ألا وهو الديمقراطية !

فإذا سألنا بعد ذلك عن هذه الديمقراطية ، جاءتنا الإجابة على لسان « طارق » بطل هذه المسرحية حيث يقول فى نهايتها :

« الديمقراطية لا تدرس ولكنها تمارس ، وليس هناك حاكم ديمقراطى وآخر غير ديمقراطى... هناك حياة ديمقراطية وأخرى غير ديمقراطية، والديمقراطية لا تصنعها المعاهد أو حسن النوايا ، ولكن تصنعها الشعوب . بأن تصر عليها وتموت من أجلها » .

« وأنتم يا من تنعمون بالديمقراطية فى بلادكم ، يا من تعتقدون أن التخلف والفقر والديكتاتورية شىء جديد ولائق بنا فقط ، بدافع من الاحتقار وهو كما تعلمون خطيئة ، أقول لكم ، لستم بعيدين منا . . والعنف فى طرقات مدنكم هو امتداد للعنف العقلى الذى تفرضونه علينا فى أوطاننا ، وذلك عندما تتجاهلون أن الناس سواسية كأسنان المشط ، وهذا شرط أصيل فى الديمقراطية » !

ولكى يجسد « **على سالم** » هذه المضامين جميعاً تجسيداً مسرحيًّا ، لجأ إلى قالبه الكوميدى الساخر والماكر فى ذات الوقت ، الذى يستطيع من خلاله أن يقول كلمته بمرارة لا تخلو من الإضحاك ، أو بإضحاك لا يخلو من المرارة ، فهو ضحك كالبكاء ، ولكنه أمتع بكثير مما اعتدنا على تسميته بالكوميديا السوداء !

أليس هو القائل فى البيان الذى أصدره إلى جمهور المسرح ، فى بداية المسرحية « إن الهدف الأساسى والوحيد من تقديم هذا العرض هو تقديم سهرة ممتعة ومضحكة ومسلية وبعيدة كل البعد عن أى فكر جاد ، وفى حالة الاشتباه فى أن

المسرحية تحمل أفكاراً جادة من أى نوع ، فلابد أن هذا قد حدث على سبيل الخطأ أو السهو .. الأمر الذى نعتذر عنه مقدماً »!

أما المسرحية فتدور أحداث فصلها الأول فى عنبر نوم فى المدرسة الثانوية العسكرية فى بلدٍ ما من بلدان العالم الثالث ، حيث مجموعة من الطلبة يتلقون تعليمات المشرف ثم الوكيل ثم المدير ، ثم يتركون لحال سبيلهم فيطلقون لخيالهم العنان ، فيفكرون على سبيل المزاح فيما لو قاموا بانقلاب عسكرى ، وتولوا زمام الحكم ، وكيف أنهم بحكم نقائهم الثورى .. وشبابهم الفتى ، سيقضون على الفساد والرشوة ، على الإقطاع والاستغلال ، على الفقر والمرض ، ويحققون ما يخطر وما لا يخطر على بال .

وفجأة يصبح الحلم حقيقة ، والمزاح واقعاً ، وينجحون فى القيام بالانقلاب الذى يؤيده الشعب فيسمى ثورة ، وإذا بطلبة الثانوية العسكرية يصبحون حكاماً على البلاد ، وبرئيسهم « طارق » ، قائداً للثورة ، ولمجلس قيادة الثورة ، حيث تدور أحداث الفصل الثانى ، ولكن لعبة الحكم لعبة بالغة التعقيد، لايقدر على ممارستها إلا من عرف قواعدها ، والنوايا الطيبة وحدها لا تكفى ، والثقة دون الخبرة قد تضر ولا تنفع ... والخبرة دون الثقة لاجدوى منها على الإطلاق ، إذن كيف تستقيم شئون الحكم ؟

إن الممارسة التى تعتمد على التجربة والخطأ ، لا تؤدى فى كثير من الأحيان إلا إلى المزيد من التجارب والمزيد من الأخطاء . وقائد الثورة بطهارته الثورية لاسبيل أمامه إلا الانفراد بالحكم ، بعد أن تأصلت شهوة الحكم فى كل من حوله ، وأغرقه كل من حوله فى دوامة لا تنتهى مما سموه باحتياطات الأمن ، وحماية الثورة . لذلك سرعان ما وجد «طارق» نفسه فى عزلة إجبارية ، عزلة فرضها عليه

جهاز الحكم ، فأبعدته عن نفسه وعن شعبه وعن أقرب الناس إليه خطيبته « عايدة » !

ويراوده التفكير فى التخلى عن الحكم ، والعودة إلى ثكناته العسكرية ، وترك الحياة المدنية للمدنيين ، ولكن اللعبة كانت قد بدأت ولابد لها أن تستمر ، وها هى القوى العظمى تتربص به وبالبلاد ، ولكل قوة عملاؤها فى المنطقة ، إذن فالبطولة ليست فى الفرار ولكن فى الاستمرار ، ولكى يستمر بمنهج علمى ، يفكر فى استكمال ما فاته من علم وثقافة ، وفى دراسة العلوم السياسية والاقتصادية ، وعلى الفور يستجيب لنصيحة الخبير العالمى للأمن والسلاح .. فى الالتحاق بأكاديمية حكم الشعوب فى سويسرا ، كى يحصل منها على شهادة البكالوريوس التى تمنح حكمه الشرعية الشعبية والاعتراف الدولى ، وفى أكاديمية حكم الشعوب بسويسرا تدور أحداث الفصل الثالث والأخير .

هناك يلتقى « طارق » بإخوانه من قادة الثورات فى دول العالم الثالث ، ممن مروا مثله بذات الظروف ولكنهم لنقص فى وعيهم الثورى ، استحالوا دمى فى أيدى القوى العظمى ، التى تحركهم كيفما تشاء وتوجههم حسبما تريد ، غير أن الدرس الأعظم الذى يتلقاه طارق هو شرح البروفيسور السويسرى (**لجمهورية أفلاطون**) وكيف أنها أشبه بجسم الإنسان تنقسم إلى ثلاثة مستويات ، فى الأعلى حيث الرأس تكمن القوى العاقلة ، وهى موطن الفلاسفة والحكام ، وفى الوسط حيث الصدر تكمن القوى الغضبية ، وهى مواطن الجنود والضباط الذين يقومون على حراسة المدينة ، وفى الأسفل حيث البطن تكمن القوى الشهوية ، وهى موطن عامة الشعب .

وهذا معناه أن قيام الجنود والضباط بمهام الفلاسفة والحكام ، أشبه بوضع

obeikandl.com

الصدر فوق الرأس فى تكوين جسم الإنسـان ، وهذه الصورة المقلوبة هى ما تحرص القوى العظمى على أن ترى من خلالها دول العالم الثالث .

لذلك نرى « طارق » فى نهاية العام الدراسى ، وقد تقدم لامتحان البكالوريوس فى حكم الشعوب ، يجيب على ورقة الأسئلة على النحو التالى : (**يقرأ**) بصفتك حاكم عسكرى . . . ما هو تقييمك للحكم العسكرى ؟ (**يجيب**) أسوأ أنواع الحكم فى التاريخ . . (**يقرأ**) . . ما هو تقييمك لمناهج الدراسة فى الأكاديمية (**يجيب**) . . . حق يراد به باطل . خدعة مدهونة ديمقراطية من أجل تثبيت الديكتاتورية فى أنحاء العالم الثالث .

وهكذا ينسحب « **طارق** » من أكاديمية حكم الشعوب ليقول كلمته فى وجه العالم كله ، ثم يعود فيتخلى عن الحكم العسكرى ، معلناً أن الديمقراطية هى أفضل صور الحكم ، وأنها لا تدرس ولا تمارس ، وإنما هى حق لكل الشعوب .

وبهذا المعنى ينتهى المشهد الأخير من مسحرية (**بكالوريوس فى حكم الشعوب**) التى استطاع مؤلفها « **على سالم** » أن يحصل بها على تقدير الامتياز فى الكتابة للمسرح الكوميدى ، وأن يثبت من خلالها أصالته الفنية ، ومعاصرته الحضارية ، وقدرته على أن يعيد للمسرح التجارى صورته المعدولة وليست المقلوبة ، وأعنى بها المسرح الهادف نحو التعبير بحرية والهاتف بجدية لا فى غرائز الجمهور ولكن فى وجدان الإنسـان .

لقد عرف « **على سالم** » كيف يعيد للمسرح وجهه الحقيقى ، وكيف يعرى عنه كل قناع ، أقنعة الرموز ، وأقنعة التلميحات ، وأقنعة الإسقاطات ، وأن يقول كلمته بحرية وجرأة ووعى ، فى مناخ ديمقراطى سليم يؤمن بأن الهواء الطلق خير من غرف الإنعاش ، وخيام الأوكسجين ، ويسمح للكل لا لفئة . . بحرية الرأى وحرية

التعبير ، من أجل الهدف الأسمى الذى نسعى إليه جميعاً ألا وهو إعادة بناء الإنسان المصرى !

ومهما يكن من رأى يقال فى الإخراج المسرحى الذى تحمل عبء تجسيد هذا النص فوق خشبة المسرح ، والذى قام به المخرجان الصاعدان « **شاكر عبد اللطيف** » و « **فيصل عزب** » ، فقد كان فى عمومه دون مستوى الكلمة . . دون مستواها بكثير ، ولولا قوة الكلمة ، وحبكة البناء ، وطرافة الكوميديا ، لتأثر هذا كله بضعف مستوى الإخراج ، وهو الضعف الذى بدا واضحاً فى الفصل الثالث حيث بطء الإيقاع . ورتابة الحركة ، والإشعار بالمط والإطالة . وكان يمكن للمخرجين أن يجدا حلولا أفضل للاحتفال الدولى الذى أقيم لحصول « طارق » على البكالوريوس فى حكم الشعوب ، ولو باستخدام الأشرطة السينمائية أو باستخدام الإضاءة بدلا من وضع جهاز التليفزيون فى مقدمة المسرح ، بهذه الصورة الساذجة ، وظهور « طارق » فى نهاية خشبة المسرح بهذه الصورة الأكثر سذاجة .

كذلك لم يكن نموذج جسم الإنسان الذى أجرى عليه البروفيسور السويسرى شرحه (**لجمهورية أفلاطون**) فى المستوى الجمالى أو التشكيلى الملائم . كان قبيحاً بحيث لا ينطبق عليه وصف البروفيسور السويسرى ، هذا فضلا عن الديكور والإكسسوار اللذين لم يوحيا على الإطلاق بجو الأكاديمية الفخم ، المقامة فى جنيف . . . والتى تدرس فيها أساليب حكم الشعوب . كذلك لم يستخدم المخرجان فى الفصل الأول لا المؤثرات الضوئية ولا المؤثرات الصوتية التى تكفى للإيهام بجو الانقلاب العسكرى ، كانت المؤثرات فقيرة وضعيفة بوجه عام .

وباستثناء الزى المبتكر إلى حد ما ، لقادة الثورة ، لم تكن باقى الأزياء مما يوحى

بجو الفانتازيا الكوميدية . وخاصة أزياء خبير الأمن الدولى ، وتاجر السلاح العالمى ، وفراش أكاديمية حكم الشعوب .

ولا أدرى كيف يمكن لمثل هذا النص المتكامل مضموناً وشكلا ، أن يعهد بإخراجه إلى اثنين ، أين إخراج (**شاكر عبد اللطيف**) وأين إخراج (**فيصل عزب**) ، أو ما هو دور كل منهما فى عملية الإخراج ؟ فى تقديرى أن عملية الإخراج لو عهد بها إلى مخرج واحد بدلا من مخرجين اثنين لكان ذلك فى صالح العمل ، سواء من حيث تكامل الرأى أو وحدة الرؤية !

فإذا انتقلنا إلى الأداء التمثيلى الذى يقف على قمته الفنان الموهوب والمثقف معاً ، « **نور الشريف** » لاستطعنا أن نقول إنه كان إضافة حقيقية إلى العمل ، وإضاءة فنية لكافة جوانب العرض المسرحى ، فقد أحب (**نور الشريف**) دوره ، ومن خلال هذا الحب . عرف كيف يتمثل الدور ، وكيف يمثله ، كان أداؤه نوعاً من السهل الممتنع ، الذى لا يقدر عليه سوى الفنان القدير ، التعبير على مقاس العبارة والانفعال على مستوى الفعل ، والحركة بمقدار ماتفسر الكلمة ، والإضحاك نابع من باطن الموقف دونما لجوء إلى أى تزيد خارجى ، لقد عرف « **نور الشريف** » كيف يعطى درساً لمهرجى الكوميديا من أصحاب الأصوات الزاعقة والحركات الفاقعة فى الأداء الكوميدى النظيف !

ثم يجىء « **يحيى الفخرانى** » فى دوره المثلث الأبعاد : خبير الأمن ، وتاجر السلاح ، وفراش الأكاديمية ليؤدى هذه الأدوار جميعا بوعى وذكاء ومهارة سواء من خلال كتلته الجسدية المرنة ، أو بحة صوته المتميزة ، أو حضوره المتميز فوق المسرح ، وكان بحق مركز إشعاع كوميدى متفجر الحيوية نابض بالحياة .

ثم يجىء « **على الشريف** » فى دور (كاباكا) أحد قادة الثورة فى دول

العالم الثالث ، ليؤدى هذا الدور من خلال طريقته المعروفة فى أداء مثل هذه الأدوار على شاشة السيما ، وكنت أفضل له أن يبحث لهذا الدور عن أسلوب آخر فى الأداء يناسبه من ناحية ، ويناسب خشبة المسرح من ناحية أخرى .

والذى يحسب لهذا العرض الكوميدى ، هو مغامرة المسئولين عنه ، بتقديم كوكبة من شباب الأداء المسرحى ، الذين يتلمسون خطواتهم الأولى فوق خشبة المسرح ، صدورهم ملأى بالحماسة ، وقلوبهم عامرة بالحب ، وهم ولا شك نجوم المستقبل المسرحى ، الذين نستطيع أن نبشر بهم واقفين بالذات عند « **عبد الهادى أنور** » و« **ممدوح وافى** » و« **على القاعود** » و« **محمد جبريل** » .

تحية للمسرح الجديد ، الذى عرف كيف يجدد شبابه ، وكيف يحصل بالفعل على درجة البكالوريوس وبتقدير ممتاز فى الفن المسرحى .